

ولا يلتفت حتى بلغ قصر الأمانة فألقى عليه نظرة ، لو كانت
نظرة تحرق لأحرقه الشرر المتطاير منها ، ثم أوسع الخطو ،
وأسرع كأنه يريد أن يجنب نفسه مرأى هذا القصر ، وأن يسابق
الزمن إلى هدفه الذي يرى إليه ...

وفارق المدينة واحتواه الغاب ، وطلت في أذنيه أصوات
هواتمه وحشراته ، وكان الغاب موحشاً غارقاً في ظلمتين ، ظلمته
وظلمة الليل ... ولكن الرجل لم ينتبه إلى وحشته وظلامه ،
وقد كان له من ضخامة المطلب الذي يسعى إليه ، وعظم الخطر
الذي يقدم عليه ، شاغل عن التفكير في ثقل هذه الليلة ، وانفراده
في الغاب ، والخوف من أن تنشق هذه الظلمة المترابكة حوله
عما يؤدي ويروع ... حتى إذا بلغ الصخرة التي تقوم عند باب
المبد وقف وأحجم ، وخالطته هيبه شديدة ، ووقر على صدره
شيء لم يجد مثله في الغاب للوحش ... ولم يكن غلاماً تفزعه
الأشباح ، ولا كان الجبلان الرعدي ، ولكن ما وضعوه في نفسه
وهو صغير من أسرار المبد وعجائبه ، جملة يشب ويكتمل ولا يزال
أمامه مثل الطفل الصغير . وكان فارس البلد غير مدافع ، وبطل
المبارك المكفورة ، ولكن المبد غير الميدان ، ولئن واجه في
الميدان رجالاً مثله ، ففي المبد قوى لا يراها ، وخفايا لا تصنع معها
شجاعته شيئاً ... ولم يدخله قط ، إنما يدخل المبد هؤلاء
النفر من الشيوخ الذين مارسوا من أنواع العبادة والرياضات
ما جعلهم أهلاً لدخوله ، ثم لا يخرجون منه أبداً ، ولا يجوز لهم
أن يعودوا فيروا نور الشمس ولا زهر الروض ، وكان يشعر بأن
لهؤلاء الكهنة مهابة في قلبه وعجبة ، ويحس بالخوف منهم وهو
الذي يواجه الأبطال الصناديد ، ويقدم على الموت الأكيد غير
خائف ولا وجل . وطال وقوفه عند الصخرة وهو يتهب أن
يقرعه يده على نحو ما أمره أن يفعل إذا هو وصل ... وجعل
يحدق في الظلام فرأى كأن شخصاً عظيم الهامة ، له لحية بيضاء
عريضة قد تبسع من الأرض ، ففزع وارتاع ، ولكنه سمع صوتاً
إنسانياً بتأديه باسمه ويدعوه إلى أن يتبعه ، فلم أنه الحارس الموكل
بباب المبد ، فليحق به وقلبه يخفق تطلماً إلى ما وراءه من خفايا
وأسرار ، فاجتاز به سرداباً طويلاً ملتويًا تضيئه مصابيح نحاسية
منقوشة ، يخرج منها هيب أزرق يتراقص قهقبي على الجدران

من التاريخ الاسلامي :

قضية سمرقند (*)

للأستاذ علي الطنطاوي

كانت ليلة مبيتة لا يتردد في صدرها نفس من نسيم ،
ولا تبدو فيها حركة حياة ، عمياء لا تبصر فيها عين من نجم
يسطع في السماء ، أو مصباح يزهر على الأرض ، وقد آوى كل
حي في (سمرقند) إلى مضجعه ، ونامت المدينة تحت أقبال من
الصمت والظلام ، ولم يبق متيقظاً فيها إلا هذا الرجل الذي
خرج من داره ، يخوض تجلج لليل ماراً إلى غايته ، ولا يقف
(*) النص التاريخي لهذه القصة في ستة أسطر من الصفحة (٤١١)
من فروع البلدان لبلاذرى طبعة مصر (١٩٣٢) .

والأسباب التي أوجبت التفضيل فقد أخبرتك فيما تقدم بما أحاط به
علمي من تمت مذهبيهما وذكر مطلوبيهما في سرقة معاني
الناس ، واتحالمها وغلظتها في الماني والألقاظ ، وإساءة من
أساء منهما في الطباق والتجنيس والاستعارة ورداءة النظم
واضطراب الوزن وغير ذلك مما أوضحت في مواضعه وبينته ، وما
سينفرد ذكره في الموازنة من هذه الأنواع على ما يقوده القول
وتقتضيه الحاجة ، وما استراه من محاسنها وبدائمهها ومجيب
اختراعهما ، فإني أوقع الكلام على جميع ذلك وعلى سائر أغراضهما
ومعانيهما في الأسمار التي أرتبها في الأبواب ، وأنبه على الجيد
وأفضله على الردي ، وأبين الردي وأرذله ، وأذكر من علل
الجميع ما ينتهي إليه التخليص وتحيط به العناية ، ويبقى ما لم يمكن
إخراجه إلى البيان ولا إظهاره إلى الاحتجاج ، وهي علة ما لا يعرف
إلا بالدربة ودائم التجربة وطول الملابس . وبهذا يفضل أهل
الحذافة بكل علم وصناعة من سوام ممن نقصت قريحته وقلت
دربته بمد أن يكون هناك طبع فيه تقبل لتلك الطباع وامتزاج ،
وإلا لا يتم ذلك ، وأركلك بمد ذلك إلى اختبارك ، وما تقضى
عليه فطنتك وتميزك .

محمد حسن الزويت

(تسليم بقية)

لو كانوا حرب المسلمين وإخراجهم من بلده ، ولم يكن يعرف مبلغ قوتهم ، وجلال ملكهم ، وأن هذا القطر كله في جنب دولتهم كالساقية التي جاءت تقاب البحر ... ولو مد البحر وأزبد وهاج لا قطع الساقية من منبعها فشرها فضاعت فيه فلم يبق لها أثر ، فلما شد رحاله وسافر ومضى يقطع الليالي الطوال ، والأسابيع والشهور ، وهو لا يفتأ يمشى في ظلال الراية الإسلامية المظفرة ، لم يلق عصا التسيار ولم يبلغ العاصمة ... من سمرقند إلى بخارى إلى بلخ إلى هرات إلى قزوين إلى الموصل إلى حلب إلى دمشق ... دنيا من الخصب والحضارة والمجد ، وبلاد كانت ممالك كثيرة ما مملكة منها إلا وهي أعظم وأضخم من سمرقند ...

وما سمرقند في جانب ملك كسرى وخاقان ؟ فأين ملك خاقان وكسرى ! لقد ابتلته المدينة التوارية بين الحربين وراء رمال الجزيرة ، تلك القرية التي هزها محمد يميند ، فولدت الأبطال الذين انتشروا في آفاق الأرض وملكوها ... وأنبئت رمالها جنات الشام والمراق وفارس وخراسان ... وهذه البلاد المخصبة للمرعة التي ليس لها آخر ... وكان كلما تقدم ورأى جديداً من دنيا الاسلام تمتلئ نفسه فرحاً من لقاء الخليفة ...

وأفاق يوماً من ذهوله ، بمد ما صرم في هذه الرحلة أشهراً ، على صوت الدليل ، وهو يهتف باسم (دمشق) .

هذه دمشق سرّة الأرض ؛ هذه سدة الدنيا ، هنا التقي والملئ والمجد والفتى والجلال والجمال ... من هنا تخرج الكلمة التي تمضي مطاعة حتى تنتهي إلى بلده سمرقند ، وتمضي من هناك حتى تبلغ أرضاً أبعد وأنانى ، حتى تجوز أسبانيا ، هنا يقيم الرجل الذي ملك ما لم يملكه في سالف الدهر قيصر ولا كسرى ولا الاسكندر ولا خاقان ... والذي لا يجد من جبال الصين إلى بحر الظلمات من يخالف عن أمره ، أو يردّ قوله ...

ولكن كيف الوصول إليه ؟ وأتى لثريب منكر مثله بالسخول عليه ؟ وخالط قلبه اليأس ... فسأل عن خان ينزل فيه فأرشد إلى خان أمضى فيه ليلته ، فلما أصبح أخرج ثيابه فلبس أحسنها ، وخرج ليلتي الخليفة ... وأقبل على أول إنسان لقيه يريد أن يسأله عن (القصر) ، فاعتراه هيئة شديدة ، وخاف من مواجهة الرجل الذي يحكم نصف الأرض ، والذي لا يبلغ ملك

الصخرية ظلالات عجيبة ، وفي السرداب تماثيل (آلهة) ذات صور بشعة مرعبة ، يومض من عينيها ضوء أحمر فيكون لها منظر يخلع قلوب الجبابرة ... وفي السرداب شقوق يدخل منها الهواء فيصنر صغيراً خفيفاً كأنه صوت سرب من اليوم ... ثم دخل به غرفاً منقورة في الصخر حتى انتهى به إلى قاعة الكهنة الذين لا يراهم أحد لأنهم لا يخرجون من المعبد ، وقل أن يدخلوا أحداً عليهم ، والذين كانوا هم حكام البلد وملوكه وأصحاب الكلمة فيه ، لا يجروا على مخالفة أمرهم أحد إلا حقت عليه لعنة (آلهة ...) المعبد ، ذات الوجه البشع المرعب ...

لم يستطع الرجل من دهشته أن يدير نظره فيما حوله ، أو أن يعلل عينيه من الكهنة ومن كان معهم ، وسمع كلاماً ينصب في أذنيه بصوت خافت رهيب كأنما هو يسمعه حالاً ... وفهم أن المتكلم يذكر ماضي سمرقند وسالف مجدها ، وكيف هبط عليها هؤلاء الملوك هبوط البلاء ، فأزاحوا عرشها ، وحطموا جيبها ، وحكروا وملكوا أمرها ، ثم أفاض في الكلام على الخطة التي اختطها لإفساد أخلاقهم ودينهم ، وإضلافهم وإلقاء الخلف بينهم ، وكانت خطة شيطانية ارتجف لساعها ، ثم عاد المتكلم فقال :

— غير أنا رأينا أن ترجى خطتنا ، وزمى آخر سهم في جعبتنا ، وذلك أنا سمعنا أن هؤلاء القوم ملكاً عادلاً يقيم في دمشق ، فأزمنا أن نرسل إليه رسولا يرفع إليه شكائنا ، ويشرح له مظلمتنا ، ثم نرى ما هو فاعل ، وقد اخترناك لمرفتك العرية وجراءة جنائك لتكون أنت الرسول ؛ فهل أنت راضٍ ؟ قال : نعم . قال : امض بتوفيق الآلهة ...

وخرج وما تسمه من فرط ازهو الأرض ، وأحسن من الخفة والنشاط أنه سيطير ، ورأى ظلام الليل أيضاً مضيقاً ، ولقد اعتدها نعمة كبرى أن دخل المعبد وكلم الكهنة ، وكان موضع ثقهم ونجومهم ، وأن أولوه شرف القيام بأضخم مهمة عهدوا بها إلى أحد ، وشعر أن جربة قطر سمرقند وشرفه في يمينه ، وأنه هو المحامي عنه والمنافع دونه ، وكان لفرط شجاعته يتمنى

وأنه سيدقمه إلى الشرطي فيستاقه إلى السجن ... فرأى الرجل
ساكنا هادئاً كأنه لم يسمع نكراً ، وسمعه يقول له :

— أحب أن أدلك على داره ؟

— قال : أوليست هذه داره ؟

— قال الرجل مبتسماً : لا هذا بيت الله ، هذا المسجد ، أصليت ؟

صلى ؟ وكيف يصلي وهو على دين سمرقند ، ذلك الدين

الذي لا يعرف منه إلا هذا المعبد المملوء بالأسرار ، وتلك الآلهة

الخفيفة ذات الوجه البشع المرعب ... وجعل يفكر : أين هذا

المعبد من معبده المخبئي ، في بطن الصخر ، وأين هذا النور وهذا

الجمال ، من تلك الظلمة وذلك القبح ؟ وشك لأول مرة في عمره

في دينه الذي نشأ عليه !

وأعاد الرجل سؤاله . فقال له : لا لم أصل ، ولا أعرف

ما الصلاة ...

— قال : وما دينك ؟

— قال : أنا على دين كهنة سمرقند ؟

— قال : وما دينهم ؟

— قال : لا أدري !

— قال : من ربك ؟

— قال : آلهة المعبد المربعة ...

— قال الرجل : وهل تعطيك إن سألتها ؟ وهل تشفيك

إن مرضت ؟

— قال لا أدري ...

ورآه الرجل ضالاً جاهلاً ، فألقى في هذا القلب الخالي

أصول الدين الحق بوضوحها واختصارها وجمالها ، فلم تكن

إلا ساعة حتى صار رسول كهنة سمرقند مؤمناً بالله ورسوله

محمد الذي جعل الله به العرب سادة الدنيا ، وإن كانوا من قبل

لني ضلال مبين ...

ثم قال الرجل قم الآن أدلك على دار الخليفة ، وإن كانت

هذه هي الساعة التي يعالج شأنه فيها وشأن عياله ، ويفرد بنفسه .

وتبمه وهو يفكر في جمال هذا الدين وسموه ، وقد زالت

النشأة عن عينيه فأدرك الآن سر هذه الفتوح وهذه القوة التي

لم يقم لها شيء . أين هذه الديانة السافرة الواضحة التي تجعل كل

شاهنشاه العظيم ولاية واحدة من ولاياته ، يحكمها أمير من

أمرائه ... وذكر كيف كانت تتصدع الأفئدة خوفاً من لقاء

كسرى ، وتقف الملوك على بابه ، وكيف كان يقتل على الظنفة ،

ويأمر بضرب عنق الرجل يقول كلمة لا تمجبه ، أو يأتيه في

ساعة يكون فيها لقيس النفس ضيق الصدر ، وتلئس عنقه

وتخيئه من الفزع مضروباً ، وتصور رأسه طائراً عن جسده ،

فطارت معه حماسته وشجاعته ... وكره لقاء الخليفة ، وفكر

في العودة إلى بلده سالماً قبل أن يحيق به مصاب لا ينفعه معه

بجد بناله ، ولا وطن يمرره ، ولا كاهن يرضيه ... وغرق في

مخاوفه وأفكاره ، وجعل يسير على غير هدى ، وكلما سرَّ على

قصر من قصور دمشق ، ورأى بهاءه وعظمته ظنه قصر الخليفة ،

نفق قلبه واضطرب ... حتى رأى قصرأ ماله في جلاله نظير ،

له باب هائل ، عرضه مثل الشارع العظيم ، له قوس مشهجرة

عالية ، ذات مقرنصات ونقوش ، قاعة على اسطواناتين من الرمر

الصافي ، ورأى الناس يدخلون ويخرجون لا يسأل أحد أحداً ،

ولا يئمه حاجب ولا بواب ، فأيقن أنه قصر الخليفة ، وتشجع

وشدَّ من عزمه ودخل يقدم رجلاً ويؤخر أخرى ... فلما لم ير

أحداً قد منعه سكنت نفسه ، ونظر فإذا هو في صحن واسع ، إذا

كنت في طرفه لا تستطيع أن تبيِّن من هو في الطرف الآخر ،

قد فرشت أرضه بتناسع الرخام فهو يلمع كالرايا ، والناس يجلسون

عليه ، وحوله جدران عالية ، ما رأى قط بناء أرفع منها ، وهي

مزخرفة بأعجب الزخارف والنقوش ، وفي وسط الصحن بركة

واسعة يتفجر منها الماء ، فيضربه شمع الشمس فيكون له منظر

عجيب ... ونفذ من الصحن إلى قاعة لا تقل عنه سعة ، ولا يدانها

بهاء وجمالا ، قد قام سقفها على أساطين الرخام ، تحمل أقواساً

فوقها أعمدة أصغر منها ، فوقها أحناء وطاقات معلقة ، تتدلى

من السقف سلاسل الذهب والفضة تحمل المصابيح والثريات ،

وجمل يمشى خلال الناس ذاهلاً ، لا يدري ماذا يصنع فاصطدم

برجل كان يقوم ويقعد ويذكر اسم الله ... وتلفت الرجل إلى

اليمين وإلى الشمال ، ونظر إليه فرآه غريباً ، فسأله عن حاله ،

فسبق لسانه إلى الحقيقة فأخبره أنه جاء من بلده يريد لقاء الخليفة ،

ثم تنبه وقدر أن الرجل سيرتاع لذكر الخليفة بلا تعظيم ولا تبجيل ،